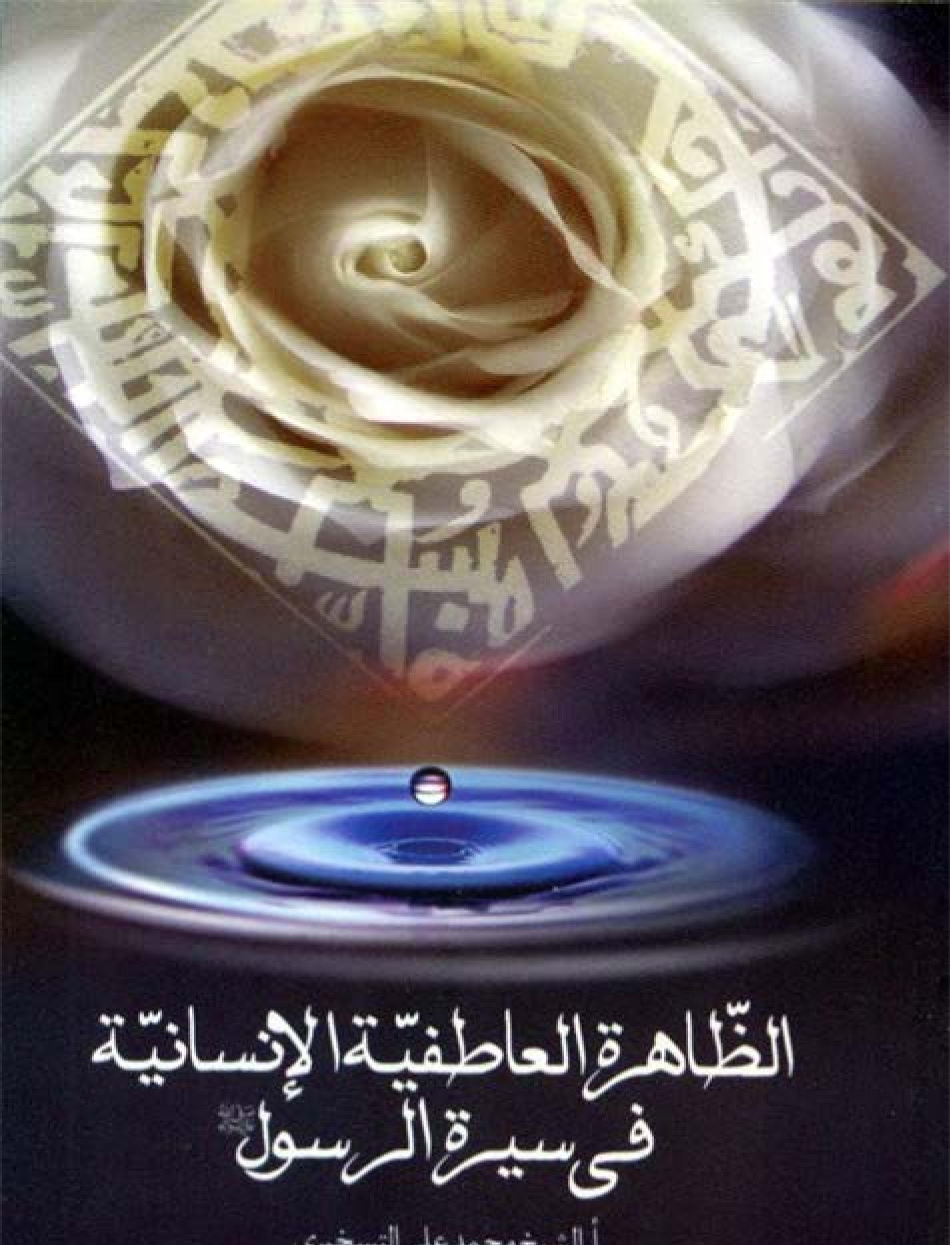
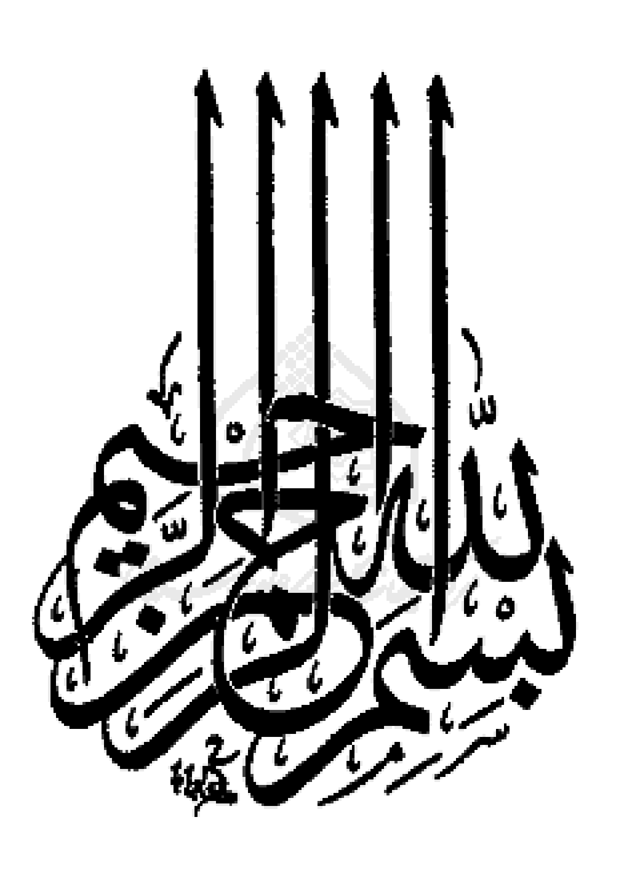

الظّاهرة العاطفيّة الإنسانيّة
في سيرة الرسول ﷺ
أ. الشيخ محمد علي التسخيري


بسم الله الرحمن الرحيم



الظّاهرة العاطفيّة الإنسانيّة في سيرة الرسول (صلى الله عليه وآله)

أ. الشيخ محمد علي التسخيري

الأمين العام للمجمع العالمي للتقريب بين المذاهب الإسلامية





حقوق الطبع محفوظة لدار مشعر

الطبعه الأولى ـ ١٤٣٠ هـ

الفهرست



المقدمة

بسم الله الرحمن الرحيم

قبل الحديث عن هذا الجانب المهم في سيرته ﷺ نرى من المستحسن ذكر بعض النقاط وهي:

أولاً: العاطفة جزء مهم من الشخصية الإنسانية، والواقعية، وهي من أهمّ صفات الإسلام العامّة تقتضي الاهتمام بها، وترشيدها لتحقّق الثمار المرجوة. وهنا نجد الإمام علياً عليه السلام (في مجال وصفه للانسجام بين مكونات الشخصية الإنسانية، وهي العقل والفكر والعاطفة والحواس والسلوك) يقول: «العقول أئمة الأفكار، والأفكار أئمة القلوب، والقلوب أئمة الحواس، والحواس أئمة الجوارح»[1] ليكشف بدقة عن جذور السلوك الإنساني الواعي.

والإسلام يعمل تماماً على تربية الإنسان في كلّ هذه المراحل:

(١) بحار الأنوار للمجلسي ج١ ص ٩٨، غريب الحديث للهروي، ج ١، ص ٢٤٦.

أ ـ يقوم بتربية عنصر التعقل الغريزي في الإنسان فيدفعه للتأمل والتدبر والتعقل والبرهنة والنظر وأمثال ذلك.

ب ـ يؤكّد على الأسلوب المنطقي للعملية العقلية مبتعداً بها عن ما يخلّ بالنتائج من أساليب تتنافى والحوار السليم.

ج ـ يربّي العنصر العاطفي ويشبعه بحب أصيل لأروع محبوب وهو (الله) ـ تعالى ـ الجامع لكل ما ترغب النفس فيه من كمال مطلق، فتسمو العاطفة غاية السمو.

د ـ يعطي الشريعة الغراء الفطرية التي تنظم السلوك وترسم خارطة السعادة.

هـ ـ يربي الإرادة القوية الواعية التي تبقى أسمى من كل دافع عاطفي مهما كان متأجّجاً للتأكد من كون العاطفة تسير في الاتجاه الصحيح أم لا، و تحتفظ بحريتها في توجيه السلوك. وبهذه الحرية تحصل المسؤولية. فلسنا مع من يصف (الإرادة) بـ (العاطفة المتأجّجة) وإلا لوقعنا في (الجبرية) وهو الأمر المرفوض وجداناً وشرعاً. ولكن يبقى للعواطف دورها المؤثر على الإرادة والسلوك. ومن هنا جاء التأكيد الإسلامي على

هذه المسألة بشتى الأساليب ومنها:

١ ـ الأساليب التوجيهية المباشرة التي تحذّر من الأهواء الجامحة بل والطاغية، فيقول القرآن الكريم:

﴿أَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ أَفَأَنْتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلاً﴾[1].

٢ ـ الأساليب غير المباشرة باستخدام الأمثال والقصص التي تمجّد الذين سيطروا على دوافعهم وأهوائهم كالأنبياء والصالحين .

٣ ـ تقديم النماذج العملية المتمثّلة في سلوك النبي ﷺ والقادة الذين رباهم من أهل البيت الطاهرين عليهم السلام والصحابة الميامين (رضي الله عنهم).

٤ ـ دعوة المسلمين بالارتفاع بحبهم إلى أسمى المستويات وهي حبّ الله وحبّ رسوله وحبّ أهل بيته الطاهرين وأصحابه المخلصين، وحينئذ تنتظم العواطف في منظومة رائعة منسجمة مع الفكر، وخلاقة للعمل للصالح.

ثانياً: وتتمّ هذه العملية التربوية للعواطف بعد تأصيل

---

(١) الفرقان: ٤٣.

وتعميق الإيمان بالله الجامع لكلّ صفات الكمال والجلال، وربط الإنسان به إلى أقصى حدٍّ من جهة، وتربية تصوّره عن الكون والحياة بتأكيد قيامهما على أصول أهمها (الحق، والعدل، والحبّ، والرحمة) ويبقى الفكر والعاطفة يعيشان في هذه الأجواء ويكملان فيها. وتأتي سيرة الرسول وسنّته لتوصّل هذه المعاني، وتقدم التجسيد الحسي الأمثل لها. ولشيء من التوضيح نلاحظ هذه الأصول:

أولاً ـ الحق سرّ الكون

يقول الراغب في مفرداته ـ بتصرّف ـ :

« الحق المطابقة والموافقة كمطابقة رجل الباب في حقه لدورانه على إستقامة. والحق يقال على أوجه:

الأول: يقال لوجد الشيء بسبب ما تقتضيه الحكمة. ولهذا قيل في الله تعالى هو الحق (ثم ردّوا إلى الله مولاهم الحق).

الثاني: (للموجد بحسب مقتضى الحكمة. ولهذا يقال الله تعالى كلّه حق (وأنّه للحق من ربك).

الثالث: من الاعتقاد بالشيء المطابق لما عليه ذلك الشيء في نفسه. كقولنا: اعتقادنا فلان في البعث والثواب... حق (فهدى الله الذين آمنوا لما اختلفوا فيه من الحق).

الرابع: للفعل والقول الواقع بحسب ما يجب وبقدر ما يجب وفي الوقت الذي يجب. كقولنا: فعلك حق (حق القول مني لأملأنّ جهنم)»[1].

ويمكننا أن نستنتج من مجموع هذه الاستعمالات أن الحق يعني باختصار: الأمر الواقع أو الواقعي.

ونقصد بالواقع: الموجود المتعين في الواقع الموضوعي أو العالم المستقل عن الصور الذهنية، وبالواقعي الأمر الذي يطابق مقتضيات الواقع الخارجي.

وأروع إنطباق للحق هو في الذات الإلهية باعتبار أنها بلغت من الوضوح لدى الفطرة الإنسانية بحيث عاد الإيمان بها إيماناً بديهياً. فأنوار الله تعالى قد غمرت الوجود فلم تعد تبصر الله تعالى في كل شيء، لذا كان هو الحق الذي لا مراء

---

(١) المفردات للراغب الاصفهاني، ص ١٢٥.

فيه والواقع الذي لا يشك فيه.

أما ما عداه تعالى من مخلوقاته وتشريعاته التي أسماها القرآن بالحق فهي ـ كما أرى ـ اكتسبت صفة الحق من وجهتين:

أ ـ من كونها واقعاً موضوعياً وهذا كما نشاهده في قوله تعالى (يوم يقوم الناس بالحق)[١]. فيلاحظ هنا التأكيد على الأشياء الخفية عن حس الإنسان وإعطائها صفة كونها حقاً لتركيز الإيمان بها.

ب ـ من كونها وجدت وفق مخطط إلهي عام للكون، كل جزء فيه ضروري لسير الحركة الكونية، ودخيل في تحقق الغاية المرجوة من الخلق التي أرادتها العناية الإلهية منذ ارادت أن يكون فكان، وفي هذا القسم الثاني تدخل كل الأشياء سواء كانت مخلوقات تكوينية أو قوانين تشريعية. يقول تعالى:

﴿ذَلِكَ بِأَنَّ اللّهَ نَزَّلَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ﴾[٢].

(١) المفردات للراغب الاصفهاني، ص١٢٥.
(٢) البقرة/ ١٧٦ .

﴿وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ بِالحَقِّ﴾(١).
﴿وَالْوَزْنُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ﴾(٢).
﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ﴾(٣).
﴿قُلِ اللَّهُ يَهْدِي لِلْحَقِّ﴾(٤).
﴿وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ﴾(٥).

ثانياً. العدل يسري في أنحاء الوجود

رغم أن البحث الكلامي والجدل الذي دار بين الفرق الإسلامية كان ينتهي أحياناً إلى نتائج معيّنة، يتغلب فيها أنصار العدل حيناً، وتقوى الشبهات فيغلب أنصار رفض العدل حيناً آخر، فإنّه مما لا شك فيه لدى المسلم: أنّ العدل ـ بأي معنى من معانيه ـ يبدأ بالعدل الإلهي بمفهومه الإجمالي الذي حدّثنا عنه القرآن الكريم، وينتهي بتطبيقاته في كل ذرة من ذرات الوجود.

(١) الأنعام/ ٧٣.
(٢) الأعراف/ ٨.
(٣) التوبة/ ٣٣.
(٤) يونس/ ٣٥.
(٥) العصر/ ٣.

فالعدل العام إذن في اعتقاد المسلم قوة أخرى وعامل قوي من العوامل المعنوية، التي تتدخل لصالح القضية العادلة في الكون... والظلم بنفسه يشكل عاملاً من عوامل الزوال والفناء، بغض النظر عن العوامل الأخرى.

هذا بإيجاز ملخص نظرة المسلم العامة، ولا مجال للإفاضة فيها أكثر، فلنلاحظ الآيات التالية:

﴿وَأُمِرْتُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمُ﴾(١).

﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالإِحْسَانِ﴾(٢).

﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلاً لاَّ مُبَدِّلِ لِكَلِمَاتِهِ﴾(٣).

﴿وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِن ظَلَمُواْ أنفسهم﴾(٤).

﴿قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِي قَالَ لاَ يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ﴾(٥).

﴿فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةً بِمَا ظَلَمُوا﴾(٦).

---

(١) الشورى/ ١٥.
(٢) النحل/ ٩٠.
(٣) الأنعام/ ١١٥.
(٤) هود/ ١٠١.
(٥) البقرة/ ١٢٤.
(٦) النمل/ ٥٢.

(إِنَّ اللَّهَ لاَ يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ)(١).

(وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِراً وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَداً)(٢).

(وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئاً)(٣).

(لا ظُلْمَ الْيَوْمَ)(٤).

(شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ وَالْمَلاَئِكَةُ وَأُوْلُواْ الْعِلْمِ قَآئِمَاً بِالْقِسْطِ)(٥).

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ كُونُواْ قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاء لِلّهِ)(٦).

ثالثاً ـ الحبّ إطار العلاقات بين مختلف انحاء الوجود

ومما يعتقد به المسلم على ضوء القرآن الكريم: أنَّ هناك إطاراً رحيماً عاماً شاملاً لكل أنحاء الوجود، وسارياً في

(١) النساء/ ٤٠.
(٢) الكهف/ ٤٩.
(٣) الأنبياء/ ٤٧.
(٤) غافر/ ١٧.
(٥) آل عمران/ ١٨.
(٦) النساء/ ١٣٥.

مختلف أنواعها. فالعلاقات بين الخـالق والمخلـوقين يؤطرهـا الحبّ. والعلاقات بين المخلوقين المتّحـدي الهـدف والمتـأدّبين بأدب السماء روحها الحب، وحتى العلاقـة بـين المـؤمنين في الكون وبين أجزاء الكون التي لا تمتلك شعور الإنسان، حـتى هذه العلاقة، يحكمها الحبّ المتبادل.

ومبررات هذا الحبّ واضـحة تمامـاً علـى ضـوء العقيـدة الإسلامية وتعاليم القرآن، فإذا بدأنا بالإطار الودي القائم بين الإنسان وربّه أدركنا أروع علاقة حبّ تتفاوت درجاتها، من حبّ يقوم على المصلحة في طرف الإنسان ولكنّـه علـى أيّ حال حبّ جارف، إلى حبّ خالص واع يعبر عن قمة في هذا المعنى، أنّه حبّ الأوصياء المخلصين.

والإسلام يمتلك خاصية أنّه يبدأ بالأشياء ببدايـة بسيطة، كإقامة حبّ يقوم على ذلك الأساس المصلحي، ثم يرتفع بـه إلى مستوى يجعله جزءاً مـن كيـان الإنسـان. ودافعـاً ذاتيـاً يتحكّم في سلوكه، ويوجّهه لصالح القضية الإنسانية العامة.

أما الحبّ من طرف الباري جل اسمه، فهو وأن كان يخلق في نفوس السذج من المؤمنين نفس الإيحاءات والتصورات البشرية من الحب بين الكائنات، ولكنه في الواقع أسلوب تعبيري عن القرب من العطاء الإلهي والاختصاص بالرحمة والرضوان بصورة أكبر من ذي قبل . وإنني قد أجزم بأنّ الإيحاء الأول حاصل حتى عند بعض أعمق المؤمنين بالله تعالى بالنظرة الأولية: وأنّ هذا أيضاً بنفسه مطلوب ومقصود. إذ أنّ الحبّ حرارة ولوعة وشوق، والنصوص القرآنية الكريمة تركز على عملية خلق الانفعال وشدّ العواطف للباري عزّ وجلّ بأساليب، منها بل أعظمها الدوافع الناتجة من تصوّر الله تعالى يلقي بظلال المحبة على الإنسان العابد.. ويمكن للقارئ الكريم التأكد من ذلك بمراجعة وجدانه الحاكم في مثل هذه الموارد.

فالنصوص تثبت الحبّ لأصناف المؤمنين الواعين، من أمثال (المحسنين، التوابين، المتطهرين، المتّقين، الصابرين، المتوكّلين، المقسطين، ﴿الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفًّا كَأَنَّهُمْ بُنْيَانٌ

مَرْصُوصٌ﴾[١] والنصوص تثبت الحبّ بين أفراد المؤمنين ﴿يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِمَّا أُوتُوا﴾[٢].

والنصوص تربط بعلاقة الحبّ بين الإنسان والطبيعة، بعد أن يشعر الإنسان بأنّ الطبيعة مسخرة له ولصالحه هو، وبعد الإيحاء إليه بأنّ يد العناية الإلهية قد باركت في الأرض أقواتها.

وقد ورد عن النبي العظيم ﷺ أنه قال عندما رجع من غزوة تبوك وعندما أشرف على المدينة: «هذه طابة، وهذا جبل أحد يحبّنا ونحبّه»[٣].

كما عبر عن ذلك بأن «حبّ الوطن من الإيمان»[٤].

وهكذا ننتهي إلى حلقة رائعة من حلقات هذا الحبّ، جعلها القرآن بمثابة أجر للرسالة الإسلامية، والجهود التي بذلها الرسول الأعظم في خدمة هذه الأمة، وهي حلقة ربط

---

(١) الصف/٤.

(٢) الحشر/ ٩.

(٣) راجع سفينة البحار، ص ٦٦٨، صحيح مسلم، ج ٢، ص ١٠١١، كتاب الحج ، ب ٩٣، ح ٥٠٣، سنن البيهقي، ج ٦، ص ٧٢.

(٤) ميزان الحكمة، ج ١٠، ص ٥٢٢ (الوطن، حب الوطن)، الدرر المنتثرة للسيوطي، ٧٤، تذكرة الموضوعات: ١١.

الأمة كل الأمة بأهل البيت الذين هم خير مؤهل لقيادتها نحو شواطئ الأمان، والذين هم سفن النجاة، وباب حطّة للعالمين».

﴿قُل لا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْراً إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى﴾(١).

وأخيراً ننتهي إلى حلقة صغرى من حلقاتها، وهي المودّة القائمة بين الزوجين ﴿وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً﴾(٢).

وتعتبر النصوص على جوانب النفي مكملة للنصوص الإيجابية، فإنَّ تلك النصوص تؤكّد تارة على انقطاع صلة الحب بين الله والعباد الذين خرجوا عن أمر ربّهم، من أمثال (المعتدين، الكافرين، الظالمين، من كان مختالاً فخوراً، من كان خواناً أثيماً، المفسدين، المسرفين، الخائنين، المتكبرين، الفرحين).

وأخرى على انقطاعها بين أفراد الإنسان: الذين يهتدون بهدى الله، والذين استزهم الشيطان إلى الكفر ﴿لَا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾(٣).

(١) الشورى/ ٢٣.
(٢) الروم/ ٢١.
(٣) المجادلة/ ٢٢.

النتيجة

من مجموع هذا نستخلص هذه النتيجة:

(أنّ المسلم يعتقد بأنّه يعيش في عالم من الحبّ المتبادل).

ولهذه العقيدة تأثيرها الواسع الأبعاد على خلق الأمل في نفس الإنسان: الأمل الإيجابي الدافع نحو سعادته ورقيه.

على أنّنا نعترف هنا بأنا لم نف الموضوع حقّه في نفسه، لكنّنا يجب أن نتذكّر أنّنا لا نبحث هنا عنه إلاّ بمقدار ما يوضح لنا الصورة التي نريد أن نرسمها.

رابعاً ـ الرحمة: بها انطلق هذا الوجود الكائن

هذا المقطع المبارك يعتبر أروع مقطع جامع يعبّر عن سرّ العقيدة الإسلامية، فقد وردت بعض الروايات التي تركز على أنّ القرآن جمع في سورة الفاتحة، وأنّ سورة الفاتحة جمعت في البسملة... وعند تحليلنا لهذا المضمون لا يسعنا إلاّ أن نرى أنّها تشير إلى: أنّ سورة الفاتحة إنّما اعتبرت روح القرآن

باعتبار أنّها تحوي أصول العقيدة الإسلامية بصورة إجمالية، والقرآن قد أطر كلّ شيء تحدّث عنه بإطار العقيدة.

أما إذا انتقلنا إلى المرحلة الثانية، فسنجد أنّ البسملة نفسها شكلت روح العقيدة وأساسها، إذ ركزت على انطلاق كلّ شيء في الوجود من اسم الله تعالى في مقطعها الأول، وعن الإطار الذي تم بموجبه ذلك الانطلاق بمقطعها الأخير.

فالانطلاق: «بسم الله» وموجبه: (الرحمة التي لا حدّ لها).

وهذه حقيقة نجدها متمشّية في مختلف المواضع من القرآن الكريم، معبرة عن مظهر من مظاهر الكمال في الذات الإلهية، مما خلق اعتقاداً راسخاً عند المسلم: أنّه منطلق من مصدر الرحمة، ومنته إلى عالم الرحمة، وسائر في كنف هذه الرحمة، التي تتجاوز عن الكثير من موارد الانحراف التي تطرأ أحياناً على سلوكه.. وسنجد عند استعراضنا لآثار الدعاء: الكثير من الأساليب التربوية العقائدية، التي تركز على هذا الجانب، في الأدعية المنقولة.

وفي القرآن الكريم نجد الكثير من الآيات الكريمة التي تقرن صفة العزّة الإلهية بالرحمة، وتنتهي بعبارة: ﴿إِنَّهُ هُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ﴾(١).

أو بعبارة: أنّه «خير الراحمين»، أو «كتب على نفسه الرحمة» أو ﴿وَرَبُّكَ الْغَنِيُّ ذُو الرَّحْمَةِ﴾(٢). وهكذا الآيات الشريفة:

﴿فَقَدْ جَاءكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ﴾(٣).

﴿إِنَّ رَحْمَتَ اللّهِ قَرِيبٌ مِّنَ الْمُحْسِنِينَ﴾(٤).

﴿فَانظُرْ إِلَى آثَارِ رَحْمَتِ اللَّهِ كَيْفَ يُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾(٥).

﴿قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ﴾(٦).

---

(١) الدخان/ ٤٢.
(٢) الأنعام/ ١٣٣.
(٣) الأنعام/ ١٥٧.
(٤) الأعراف/ ٥٦.
(٥) الروم/ ٥٠.
(٦) الزمر/ ٥٣.

﴿الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى﴾(١).

وحتى في أشدّ المواقف هيبة ورهبة تأتي صفة (الرحمن):

﴿وَخَشَعَتِ الْأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَنِ فَلَا تَسْمَعُ إِلَّا هَمْسًا﴾(٢).

وهكـذا يعتقـد المسـلم بعنصـرين آخـرين بالإضـافة إلى عنصري الحق والعدل ـ اللذين يعنيـان التـوازن أول مـا يعنيان ـ وهما: الحبّ والرحمة، اللذان يعنيان: الفضل من الخير والإعطاء فوق الاستحقاق.

وبهذا نكون قد عرفنـا القـوانين الأساسـية المتحكّمـة في الكون، وهي قوانين: (الحق والعدل والحب والرحمـة)، وكلّهـا مما تتعلّق به القلوب، وتنمو به العواطف والأحاسيس.

وقد قدم الإسلام رسوله الكريم أروع مثال لهذه الحقـائق وكانت سنته وسيرته تعمّقها في النفوس.

(١) طه/ ٥.
(٢) طه/ ١٠٨.

الرسول الكريم أعظم مظهر لهذه المعاني

إنّ المتتبّع لسيرته وسنّته ﷺ يجده بوضوح أروع تجلٍ لهذه الحقائق، (الحقّ والعدل، والحبّ، والرحمة) ليكون بحقّ المتمّم لمكارم الأخلاق، والرحمة المهداة للبشرية.

وهذا ما سنستعرضه باختصار في العناوين والروايات الآتية. ولكن قبل الدخول في هذا الاستعراض نرى من الجميل أن نذكر بعض المقاطع من (نهج البلاغة) يصف فيها الإمام علي عليه السلام أستاذه ومعلّمه ونبيّه ومحبوبه رسول الله ﷺ بأروع الأوصاف فيقول:

«بعث الله سبحانه محمداً رسول الله ﷺ لإنجاز عدته، وإتمام نبوّته، مأخوذاً على النبيّين ميثاقه، مشهورة سماته، كريماً ميلاده»[1] ويقول عنه: «قائماً بأمرك، مستفزاً في مرضاتك، غير ناكل عن قدم، ولاواه في عزم، واعياً لوحيك، حافظاً لعهدك، ماضياً على نفاذ أمرك، حتى اورى قبس القابس،

(١) نهج البلاغة: ضبط صبحي الصالح ص ٤٤.

وأضاء الطريق للخابط، وهديت به القلوب بعد خوضات الفتن والآثام»(١).

ويصف سيرته فيقول: «سيرته القصد، وسنته الرشد، وكلامه الفصل، وحكمه العدل»(٢).

ويقول عنه: «فبالغ صلى الله عليه وآله في النصيحة، ومضى على الطريقة، ودعا إلى الحكمة، والموعظة الحسنة»(٣).

وكذلك يقول: «حتى بعث الله محمداً صلى الله عليه وآله شهيداً، وبشيراً ونذيراً، خير البرية طفلاً، وأنجبها كهلاً، وأطهر المطهّرين شيمة، وأجود المستمطرين ديمة»(٤).

وفي موضع آخر يقول عنه: «التصديق منهاجه، والصالحات مناره، والموت غايته، والدنيا مضماره، والقيامة حلبته، والجنة سبقته ... فهو لعيشك نعمة للعالمين، ورسولك بالحق رحمة»(١).

---

(١) نهج البلاغة: ضبط صبحي الصالح ص ١٠١.
(٢) المصدر السابق: ص ١٣٩.
(٣) المصدر السابق: ص ١٤٠.
(٤) المصدر السابق: ص ١٥١.
(١) المصدر السابق: ص ١٥٣ و١٥٤.

وكذلك يقول: «طبيب دوّار بطبّه، قد أحكم مراهمه، وأحمى مواسمه، يضع ذلك حيث الحاجة إليه، من قلوب عمي، وآذان صمّ، وألسنة بكم»[1].

«عبده ورسوله، ونجيبه وصفوته، لا يؤازى فضله، ولايجبر فقده، أضاءت به البلاد بعد الضلالة المظلمة، والجهالة الغالبة»[2].

«ولقد كان ﷺ يأكل على الأرض، ويجلس جلسة العبد، ويخصف بيده نعله، ويرقع بيده ثوبه، ويركب الحمار العاري ويردف خلفه»[3]

«أمين وحيه، وخاتم رسله، وبشير رحمته، ونذير نقمته»[4]

ولا أجد أروع من هذه الأوصاف، كما لا استطيع أن أفصل في مواقفه ﷺ بين موقف وموقف، وما علي إلاّ أن أذكر بعض الروايات معلقاً عليها لا غير وفق العناوين التالية:

(١) نهج البلاغة: ص ١٥٦.
(٢) المصدر السابق: ص ٢١٠.
(٣) المصدر السابق: ص ٢٢٩.
(٤) المصدر السابق: ص ٢٤٧.

معتبراً إياها ظواهر عامة في حياته ﷺ.

أولاً: الرحمة سنة عامة ومع الجميع

١ ـ عنه ﷺ «لما خلق الله الخلق، كتب في كتابه فهو عنده فوق العرش: ان رحمتي تغلب غضبي»(١) وهو مفهوم شائع في الأدعية المروية عن أهل البيت عليهم السلام.

٢ ـ وعنه ﷺ «أنّ الله خلق يوم خلق السماوات والأرض مائة رحمة، كلّ رحمة طباق مابين السماء والأرض، فجعل منها في الأرض رحمة فيها تعطف الوالدة على ولدها والوحش والطير بعضها على بعض، فإذا كان يوم القيامة أكملها بهذه الرحمة»(٢) فهي سنة تكوينية، والتشريع يتوازن مع التكوين.

٣ ـ عن ابن مسعود «كأني أنظر إلى رسول الله ﷺ يحكي نبياً من الانبياء ضربه قومه وهو يمسح الدم عن وجهه ويقول:

---

(١) رواه أحمد، ج ٢، ص ٢٦٠، ١٣ ومسلم، ج ٤، ص ٢١٠٧ كتاب التوبة، ب ٤، ح ١٤، بحار الأنوار، ج ١١، ص ١٨٢.

(٢) رواه مسلم، ج ٤، ص ٢١٠٩ كتاب التوبة، ب ٤، ح ٢١، مستدرك الحاكم، ج ١، ص ٥٦، ج ٤، ص ٢٤٧.

(اللهم اغفر لقومي فإنهم لايعلمون).[١] إنها رحمة حتى بالكافرين المعتدين.

٤ ـ روى جابر بن سمرة قال: «صلّيت مع رسول الله ﷺ صلاة الأولى ثم خرج إلى أهله وخرجت معه، فاستقبله ولدان، فجعل يمسح خدّي أحدهم واحداً واحداً. قال: وأمّا أنا فمسح خدي. قال فوجدت ليده برداً أوريحاً كأنما أخرجها من جؤنة عطار»[٢]

٥ ـ قال ﷺ «ترى المؤمنين في تراحمهم وتعاطفهم كمثل الجسد، إذا اشتكى عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمّى»[٣] وهكذا تسود أروع وأمتن علاقات الرحمة والحسب بين المؤمنين.

٦ ـ وقال ﷺ «إذا صلّى أحدكم للناس فليخفّف، فإن منهم الضعيف والسقيم والكبير، وإذا صلّى أحدكم لنفسه فليطول ماشاء».[٤]

(١) رواه أحمد في المسند ١:٤٤١، ومسلم، ج٣، ص ١٩١٧، ح ١٧٩٢ ومسلم.
(٢) رواه مسلم، ج ٤، ص ١٨١٤، كتاب الفضائل، ب ٢١، ح ٨٠
(٣) رواه البخاري (الفتح ١٠) ومسلم، ج ٤، ص ١٩٩٩ كتاب البرّ والصلة، ب ١٧، ح ٦٦، بحار الأنوار ٧٤: ٢٣٤و٢٧٤.
(٤) رواه مسلم، ج ١، ص ٣٤١، كتاب الصلاة، ب ٣٧، ح ١٨٥، تهذيب الأحكام، ج ٣، ص ٢٨٣، ح ١١٣٩.

٧ ـ وروى مالك بن الحويرث قال: أتينا النبيﷺ ونحن شببة متقاربون فأقمنا عنده عشرين ليلة فظنّ أنا أشتقنا أهلنا، وسألنا عمّن تركنا في أهلنا فأخبرناه، وكان رقيقاً رحيماً، فقال: «ارجعوا إلى أهليكم فعلّموهم ومُروهم، وصلّوا كما رأيتموني أصلي، وإذا حضرت الصلاة فليؤذّن لكم أحدكم، ثم ليؤمّكم أكبركم».(١)

٨ ـ «قدم على النبي سبي، فإذا امرأة من السبي تحلب ثديها تسقي، فإذا وجدت صبياً في السبي أخذته فالصقته ببطنها وارضعته. فقال النبيﷺ أترون هذه طارحة ولدها في النار؟ فقال الصحابة(رض): لا وهي تقدر الا تطرحه فقال: الله أرحم بعباده من هذه بولدها»(٢)

٩ ـ بعدما جرى في أحد نادته الملائكة إن شاء تطبق على

---

(١) رواه مسلم، ج ١، ص ٤٦٥ - ٤٦٦ كتاب المساجد، ب ٥٣، ح ٢٩٢، وانظر علل الشرائع، ص ٣٢٦، ح ٣.

(٢) مسلم ج ٤، ص ٢١٠٩ كتاب التوبة، ب ٤، ح ٢٢، المعجم الصغير ١: ٩٨.

أعدائه الأخشبين فقال ﷺ: «بل أرجو أن يخرج الله من أصلابهم من يعبد الله وحده لايشرك به شيئاً»(١)

١٠ ـ قال رسول الله ﷺ «بينما كلب يطيف بركية كاد يقتله العطش، إذ رأته بغي من بغايا بني اسرائيل فنزعت موقها فسقته فغفر لها به»(٢).

١١ ـ وروى أسامة بن زيد (رض) قال: كان رسول الله يأخذني فيقعدني على فخذه ويقعد الحسن بن علي على فخذه الآخر ثم يضمّهما ثم يقول: «اللهم ارحمهما فإنّي أرحمهما»(٣).

١٢ ـ وصلّى ﷺ على جنازة فقال: «اللهم اغفر له وارحمه»(٤).

---

(١) شرح السنة للبغوي، ١٣، ص ٢١٤و٣٢٣.

(٢) رواه البخاري ج ٣، ص١٢٧٩ كتاب الأنبياء٢٥ومسلم، ج ٤، ص ١٧٦١ كتاب السلام، ب٤١، ح١٥٥.

(٣) رواه البخاري، ج ٥، ص ٢٢٣٦، كتاب الأدب، ب ٢٣، أمالي الصدوق، ص ٣٤، ح ١٥٣.

(٤) رواه مسلم، ج ٢، ص ٦٦٢، فقه الرضا: ١٩، عوالي اللئالي، ج ٢.

١٣ ـ وكان يقول: «أنا محمد،وأحمد، والمقفي، والحاشر، ونبي التوبة، ونبي الرحمة»[١]

١٤ ـ وكان يقول: «رحم الله رجلاً سمحاً إذا باع وإذا اشترى وإذا اقتضى»[٢]

١٥ ـ وقال ﷺ: «لا يرحم الله من لا يرحم الناس»[٣]

١٦ ـ وقيل يا رسول الله ادع على المشركين قال: «إني لم أبعث لعاناً وإنما بعثت رحمة»[٤]

وهكذا تأتي رحمة الله الإسلام لتشمل: الخلق كلّهم، بل الكون كلّه (وهو المفهوم من عبارة البسملة في القرآن بعد حديثها عن انطلاقة كلّ شيء باسم الله، ووصفه تعالى بالرحمن الرحيم) وتشمل حتّى الكافرين المعتدين وتسرى في

(١) رواه مسلم، ج ٤، ص ١٨٢٨ ، كتاب الفضائل ، ب ٣٤، ح ١٢٦، علل الشرائع، ج ١، ص ١٢٨، ب ١٠٦، ح ٢، بحار الأنوار ، ج ١٠٣، ص ١٠٤.

(٢) رواه البخاري ، ج ٢، ص ٧٣٠، كتاب البيوع، ب ١٦، ح ١٩٧٠.

(٣) رواه البيهقي في السنن الكبرى ٩: ٤١، ميزان الحكمة ، ج ٤، ص ١٤١٦.

(٤) رواه مسلم ، ج ٤، ص ٢٠٠٦، كتاب البرّ والصلة ، ب ٢٤، ج ٨٧، ميزان الحكمة، ج٩، ص ٣٦٨٤، رقم ١٨٢٣٤.

كل العلاقات الاجتماعية الإسلامية بين المؤمنين، وتتركّز على الولدان والشباب وتصل إلى الحيوان، فهي إذن تشمل كلّ شيء. والمسلم الواعي هو الإنسان الرحيم بكلّ شيء.

ثانياً: البرّ والإحسان والإيثار مظاهر للرحمة:

وهي أمور تتّسع اتّساع الرحمة نفسها من خلال سنّة الرسول الأكرم وسيرته: فلنلاحظ هذه الباقة من الأحاديث:

١ ـ قال ﷺ: «في كلّ ذات كبد رطبة أجر» وقد استند الإمام زين العابدين لهذا الحديث فجوّز إطعام الحرورية من الهدي رغم أنّهم كانوا من الدّ أعداء أهل البيت عليهم السلام.[١]

٢ ـ وقال ﷺ: «كلّ معروف صدقة».[٢]

٣ـ وعن أبي ذر (رض): قال لي النبي ﷺ: «لا تحقرن من المعروف شيئاً، ولو أن تلقى أخاك بوجه طلق»[٣].

---

(١) رواه أحمد، ج ٢، ص ٧٣٥، والبيهقي، ج ٤، ص ١٨٦، وج ٨، ص ١٤، وراجع موجز أحكام الحج للسيد الصدر ص ١٦٠.

(٢) رواه مسلم، ج ٢، ص ٦٩٧، كتاب الزكاة، ب ١٦، ح ٥٢، مستدرك الوسائل، ج ١٢، ص ٣٤٣، كتاب بالمعروف، ب ١، ح ٢٠.

(٣) رواه مسلم، ج ٤، ص ٢٠٢٦ كتاب البرّ والصلة، ب ٤٣، ح ١٤٤، ثواب الأعمال، ج ٢، ص ١١ اص ١٢٤٠، ص ٤٢٤، ح ٧.

٤ـ وقال ﷺ: المسلم أخو المسلم لا يظلمه ولا يسلمه، ومن كان في حاجة أخيه كان الله في حاجته، ومن فرج عن مسلم كربة فرّج الله عنه كربة من كربات يوم القيامة، ومن ستر مسلماً ستره الله يوم القيامة»[1].

٥ ـ قال ﷺ: «المؤمن مرآة المؤمن، والمؤمن أخو المؤمن: يكف عليه ضيعته، ويحوطه من ورائه»[2].

٦ـ وقال رسول الله ﷺ «إنّ الأشعريّين إذا أرملوا في الغزو، أوقل طعام عيالهم بالمدينة جمعوا ما كان عندهم في ثوب واحد، ثم اقتسموه بينهم في إناء واحد بالسوية فهم مني وأنا منهم»[3].

٧ ـ وقال ﷺ «طعام الاثنين كافي الثلاثة وطعام الثلاثة كافي الأربعة»[4].

٨ ـ وقال ﷺ: «أربعون خصلة أعلاهنّ منيحة العنز. ما

---

(١) رواه مسلم، ج ٤، ص ١٩٩٦، كتاب البرّ والصلة، ب ١٥، ح ٥٨، مستدرك الوسائل.
(٢) رواه أبو داود، ج ٤، ص ٢٨٠، كتاب الأدب، ح ٤٩١٨، كتاب المؤمن للأهوازي، ص ٤١، ح.
(٣) رواه مسلم، ج ٤، ص ١٩٤٤، كتاب فضائل الصحابة، ب ٣٩.
(٤) رواه البخاري، ج ٥، ص ٢٠٦١، كتاب الأطعمة، ب ١٠ح ٥٠٧٧، دعائم الإسلام، ج٢، ص ١٦.

من عامل يعمل بخصلة منها رجاء ثوابها وتصديق موعودها إلاّ أدخله الله بها الجنة»(١).

٩ــ وقالﷺ: «الساعي على الأرملة والمسكين كالمجاهد في سبيل الله»(٢).

١٠ــ وقالﷺ: «إخوانكم خولكم»(٣).

١١ ــ وقالﷺ: « من سرّه أن ينجيه الله من كرب يوم القيامة فلينفّس عن معسر أو يضع عنه»(٤).

وبهذا يتحوّل المسلم المتبع لرسول اللهﷺ إلى وجود بشري محسن، يحسن لكلّ ذات كبد رطبة إنساناً كان أم حيواناً، ويصنع المعروف أي معروف حتى ولو كان قليلاً، يعيش هم أخيه ويشعر بآلامه وآماله، وينظر إليه مرآة له،

---

(١) رواه البخاري، ج٢، ص ٩٢٧، كتاب الهبة ، ب ٣٣، ح ٢٤٨٨، الخصال، ج ٢، ص١٥٤٣، ج ١.

(٢) رواه البخاري ج ٥، ص ٣٠٤٧، كتاب النفقات ، ب ١، ح ٥٠٣٨، ومسلم ، ج ١ .

(٣) رواه البخاري ، ج ١، ص ٢٠، كتاب الإيمان ، ٣٠، ح ٣٠، ومسلم ج ٣، ص ١٣٨٢، كتاب الأعمال، ب ١٠، ح ٢٨، تنبيه الخواطر، ج ١، ص ٥٧.

(٤) رواه مسلم، ج ٣، ص ١١٩٦ كتاب المساقاة، ب ٦، ح ٣٢، ثواب الأعمال، ج ١، ص١٧٩، ح ١.

ويقاسمه لقمة عيشه (كالأشعريين) ويمنح عطائه للآخرين، ويسعى على الأرملة والمسكين ويتعهد عبده فهو أخوه أيضاً. وهكذا كان رسول الله نفسه بل كان في قمة هذه الصفات.

ثالثاً: التكريم، والعفو، والكلام الطيب والمداراة وحسن الظن بعض خلقه ﷺ

وكلّها أيضاً مظاهر للعاطفة والرحمة النبوية المهداة.

فلنلاحظ هذه النصوص الشريفة:

١ـ روى الإمام الصادق عليه السلام عن جابر بن عبدالله رضي الله عنه أنّ رسول الله ﷺ خطب الناس بعرفة فقال: «انّ دماءكم واموالكم حرام عليكم كحرمة يومكم هذا في شهركم هذا، في بلدكم هذا»[1].

٢ـ وفي رواية أخرى في نفس المورد قال ﷺ: «اتقوا الله في النساء فإنكم أخذتموهن بأمان الله، واستحللتم فروجهنّ

---

(١) رواه مسلم، ج٢، ص ٨٨٩، كتاب الحج، ب ١٩، ضمن ، ح ١٤٧، دعائم الإسلام، ج٢، ص ٤١٣، ح ١٠، ؛ مستدرك الوسائل، ج ١٨، ص ٢٠٦، .

بكلمة الله»(١).

٣ـ وقال ﷺ: «استوصوا بالنساء خيراً»(٢).

٤ـ وقال ﷺ: «إنّ الله تبارك وتعالى أرأف على الإناث منه على الذكور، وما من رجل يدخل فرحة على امرأة بينه وبينها حرمة إلاّ فرّحه الله تعالى يوم القيامة»(٣)

٥ـ وقال ﷺ: «ما أكرم النساء إلاّ كريم ولا أهانهنّ إلاّ لئيم».(٤)

٦ـ وقال ﷺ: «من قتل معاهداً لم يرح رائحة الجنة، وإنّ ريحها توجد من مسيرة أربعين عاماً»(٥).

٧ـ وكان ﷺ يوصي المقاتلين قائلاً: «اغزوا ولا تغدروا ولا تغلوا ولا تمثلوا، ولا تقتلوا وليداً»(٦).

٨ـ وقال ﷺ لأبي هريرة: «افش السلام، واطب الكلام

---

(١) المصدر السابق، دعائم الإسلام، ج ٢، ص ٢١٤، ح ٧٨٩.

(٢) رواه البخاري ج ٣، ص ١٢١٢، كتاب الأنبياء، ب ٢، ح ٣١٥٤، عوالي اللئالي.

(٣) الكافي للكليني ج٥ ص٦.

(٤) نهج الفصاحة ٣١٨.

(٥) رواه البخاري، ج ٣، ص ١١٥٥، كتاب الجزية، ب ٥، ح ٢٩٩٥، بحار الأنوار، ج ١٦، ص ٢١٧.

(٦) نصب الراية ٣: ٣٨٠، دعائم الإسلام ج ١، ص ٣٦٩.

وصل الأرحام وقم بالليل والناس نيام تدخل الجنة بسلام»[١].

٩ـ وقال ﷺ: «الكلمة اللينة صدقة»[٢].

١٠ـ وقال ﷺ: «إنّا نكشر في وجوه أقوام وقلوبنا تلعنهم»[٣].

١١ـ وقال ﷺ: «مداراة الناس صدقة»[٤].

وهكذا أيضاً نجده ﷺ يدعو لتكريم الإنسان أياً كان، وينشر السلام والاحترام بين المؤمنين، ويوصي بالنساء خيراً، ويأمر باحترام حقوق المعاهدين، والتأدّب بالآداب الإنسانية للحروب وأن تعمّ المجتمع الإسلامي الخصال الحسنى: السلام الشامل، والكلام الطيب، وصلة الأرحام والصلاة الخاشعة في الليل، والكلمة الليّنة وأخيراً المداراة حتى مع من يكرهون. وما أحوجنا اليوم لمثل هذه الخصال.

---

(١) رواه أحمد ٤٩٣/٢، تفسير أبي الفتوح الرازي، ج ٢، ص ١٧، مستدرك الوسائل، ج ٨، ص ٣٦٤.

(٢) رواه أحمد ٢١٣/٢، الكافي، ج ٢، ص ١٠٣، ح ٤.

(٣) رواه البيهقي، ٨: ١٩٧.

(٤) رواه ابن حبان ٢١٦/٢، ميزان الحكمة، ج ٢٧، ص ١١٥٤ رقم ٥٤٩٦.

رابعاً: الرسول الكريم يواجه بالعاطفة الإنسانية مواقف صعبة

والمستعرض لسيرة رسول الله ﷺ يجدها ملأى بالعطف والحنان والمشاركة للأصحاب في كلّ الأعمال، الأمر الذي يثير الحماس فيهم وينسيهم مصاعب المسير ويدفعهم للتفاني فقد أخبر الخليفة الراشد عثمان عن ذلك بقوله: «إنّا والله قد صحبنا رسول الله ﷺ في السفر والحضر، وكان يعود مرضانا، ويتبع جنائزنا، ويغزو معنا، ويواسينا بالقليل والكثير»[1].

وفي الرواية عن الصادق «إنّ المساكين كانوا يبيتون في المسجد على عهد رسول الله ﷺ، فأفطر النبي ﷺ مع المساكين الذين في المسجد ذات ليلة عند المنبر في برمه فأكل منها ثلاثون رجلاً ثم ردت إلى أزواجه شبعهن»[2].

وكان ﷺ يعمل مع أصحابه في الخندق عملاً شاقاً وربما صاحب ذلك الجوع الشديد.

فقد ورد عن الرضا عن آبائه عن أمير المؤمنين علي: «كنّا

(١) رواه أحمد ١/٧٠، نهج البلاغة، للسيد الرضي: الخطبة رقم (١٠٠).
(٢) بحار الأنوار، ج ١٦، ص ٢١٩.

مع النبي ﷺ في حفر الخندق إذ جاءت فاطمة ومعها كسرة من خبز فدفعتها إلى النبي صلى الله عليه وآله فقال ﷺ ما هذه الكسيرة؟ قالت: خبزته قرصاً للحسن والحسين جئتك منه بهذه الكسيرة، فقال النبي ﷺ: يا فاطمة أما إنه أول طعام دخل جوف أبيك منذ ثلاث»[١]. ومن أروع ما في سيرته ﷺ أنه كان يواجه المواقف الكبيرة مواجهة عقائدية وعاصفية كانت تلهب الحماس في النفوس وتدفعها نحو التضحيات الجسام.

يقول الإمام علي عليه السلام كما يذكر نهج البلاغة: «ولقد كنّا مع رسول الله صلى الله عليه وآله: نقتل آباءنا وأبناءنا وإخواننا وأعمامنا ما يزيدنا ذلك إلاّ إيماناً وتسليماً، ومضياً على اللقم، وصبراً على مضض الألم، وجداً في جهاد العدو.

... فلما رأى الله صدقنا أنزل بعدونا الكبت، وأنزل علينا النصر»[٢].

(١) بحار الأنوار ج ١٦، ص ٢٢٥، طبقات ابن سعد، ج ٢، ص ١١٤.

(٢) نهج البلاغة، ص ٩٢.

وسنركز على موقفين من هذه المواقف باعتبارهما نموذجين رائعين وكل مواقفهﷺ رائعة.

الموقف الأول: حمراء الأسد

حدثنا التاريخ أن قريشاً بعد أن أوقعت القتل والهزيمة بجيش المسلمين في معركة أحد رحلت منتشية بنصرها فلمّا بلغت محلاً يقال له (الروحاء)، أدركت أنها لم تستطع أن تستغل النصر استغلالاً كاملاً، ولعلّ ذلك كان بإيحاء من بعض الشياطين، فأعدّت العدّة للعودة إلى المدينة واستئصال المسلمين فيها، كما صرّح بذلك قائدها أبوسفيان، ووصلت هذه الأنباء إلى الرسولﷺ فبدأ بتعبئة المسلمين وحثهم على القتال، مثيراً فيهم أقوى العواطف الرسالية، وانطلق هو معهم، فخرجوا على مابهم من الجراح وعلى ما أصابهم من القرح، ولكنّهم كانوا كالأسود المجروحة، وهو مجروح معهم، وتحركوا حتى وصلوا إلى منطقة تدعى حمراء الأسد مستعدّين للتفاني

في سبيل العقيدة. وعلم أبوسفيان بالخبر، وأدرك أنّ هذه المجموعة المتفانية لا يمكن أن تقهر حينما لقي معبداً الخزاعي فسأله ماوراءك يا معبد؟ قال: «قد والله تركت محمداً وأصحابه وهم يحرقون عليكم» وجاء في سيرة ابن هشام: «قال: محمد وأصحابه يطلبكم في جمع يتحرّقون عليكم تحرّقاً قد اجتمع معه من كان تخلّف عنه في يومكم، وندموا على ما صنعوا، فيهم من الحنق عليكم شيء لم أر مثله قطّ»[1].

وبهذا دخل الرعب في قلب أبي سفيان فأرسل مع ركب عبدالقيس رسالة إلى النبيﷺ يخبره فيها أنه عاد عن قراره فقالﷺ «والذي نفسي بيده، لقد سُومت لهم حجارة، لو صبحوا بها لكانوا كأمس الذاهب». ثم ردّدﷺ الآية ﴿حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ﴾ وكان بذلك يتفاعل مع تعليمات القرآن التي جاءت في سورة الأنعام والتي جاء فيها عشرات الآيات التي تلقي دروساً على المسلمين بعد معركة أحد لتعيد لهم العزيمة،

(١) سيرة ابن هشام، ج ٣، ص ١٠٨، بحار الأنوار، ج ٢٠، ص ٩٩.

وتعبئ الطاقات ، وتعمق المفاهيم، وكان من تلك الدروس قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُواْ لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَاناً وَقَالُواْ حَسْبُنَا اللّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ.فَانقَلَبُواْ بِنِعْمَةٍ مِّنَ اللّهِ وَفَضْلٍ لَّمْ يَمْسَسْهُمْ سُوءٌ وَاتَّبَعُواْ رِضْوَانَ اللّهِ وَاللّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ﴾[1].

حيث ربت المسلمين على أن يحولوا التهديدات إلى فرص مستعينين بالله متوكلين عليه وهو نعم الوكيل.

والتاريخ هنا يحدثنا عن بطولات الصحابة رضي الله عنهم بأروع الصور ومنها هذه الصورة: «كان ضمرة بن سعيد يحدث عن جدته التي كانت تسقي الماء في أحد، قالت سمعت النبي ﷺ يقول: لمقام نسيبة بنت كعب اليوم خير من مقام فلان وفلان! وكان يراها تقاتل يومئذ أشدّ القتال، وأنها لحاجزة ثوبها على وسطها حتى جرحت ثلاثة عشر جرحاً» فلما حضرتها الوفاة كنت فيمن غسلها فعددت جراحها جرحاً جرحاً فوجدتها

---

(١) آل عمران ١٧٣، ١٧٤.

ثلاثة عشر جرحاً، وكانت تقول: إني لأنظر إلى ابن قميئة وهو يضربها على عاتقها ـ وكان أعظم جراحها، ولقد داوته سنة.

ثم نادى منادي النبي ﷺ إلى حمراء الأسد فشدّت عليها ثيابها فما استطاعت من نزف الدم»[1].

لقد كان الحماس النبوي عظيماً حتى جاء في الخبر انه كان يقول:

«والذي نفسي بيده، لو لم يخرج معي أحد لخرجت وحدي»[2].

ومن أروع ما ينقل انه ﷺ أمر مناديه أن يقول: «إنّ رسول الله يأمركم بطلب عدوكم ولا يخرج معنا إلاّ من شهد القتال بالأمس» ليقول سعد بن خضير (رض) وبه سبع جراحات وهو يريد أن يداويها: سمعاً وطاعة لله ولرسوله! فأخذ سلاحه ولم يعرّج على دواء جراحه».

---

(١) كتاب المغازي للواقدي، ج ١، ص ٢٧٠.

(٢) المصدر السابق، ج ٢، ص ٣٢٧.

وهذان مسلمان جريحان يصلهما النداء فيقول أحدهما لصاحبه «والله إن تركنا غزوة مع رسول الله لغبن» وخرجا يزحفان يضعف أحدهما فيحمله الآخر على ظهره عقبةً «أي بالتناوب»[1].

الموقف الثاني: بعد معركة هوازن

ونقف هنا لنتأمل علاجه لحالة الضعف التي بدت لدى بعض المسلمين تجاه خطوة قام بها النبي ﷺ في أموال هوازن، حيث أعطى الغنائم الكثيرة لأهل مكة الذين اشتركوا معه في مطلع حياتهم الرسالية، فقاتلوا الكافرين بعد ان كانوا هم الطليعة الكافرة، وكان هذا الإعطاء ذا دوافع اجتماعية سياسية عالية تحاول تأليف القلوب وإشعارها بفارق كبير بين حياة الاستغلال الجاهلية وحياة العزة الإسلامية، وغير ذلك. وهنا أشاع المنافقون بين الأنصار بأنه ﷺ لقي قومه فمال

(١) كتاب المغازي للواقدي، ج ٢، ص ٣٣٥.

إليهم، الأمر الذي ولد حالة ضعف في نفوس بعض المسلمين الأنصار. وسرّت هذه الاشاعة لتؤدي إلى شبه موجة تساؤل وغضب. وهي حالة خطيرة في مجتمع يبنيه رسول الله ﷺ ليحمل الرسالة الكبرى إلى العالم بعقيدة راسخة. وهنا جمعهم رسول الله ﷺ ودار بينه وبينهم الحوار التالي:

قال ﷺ: يا معشر الأنصار ما قالة بلغتني عنكم، وجدة وجدتموها في أنفسكم؟ ألم آتكم ضلالاً فهداكم الله، وعالة فأغناكم الله، وأعداء فألّف الله بين قلوبكم؟ فقال الأنصار: بلى! الله ورسوله أمنّ وأفضل. فقال ﷺ: ألا تجيبوني يا معشر الأنصار؟ فردّ الأنصار: بماذا نجيبك يا رسول الله؟ لله ولرسوله المنّ والفضل.

فقال ﷺ: أما والله لو شئتم لقلتم ولصدقتم، ولصُدّقتم أتيتنا مكذَّباً فصدقناك، ومخذولاً فنصرناك، وطريداً فآويناك، وعائلاً فآسيناك...

وأضاف ﷺ بعد هذا قوله: «أوجدتم يا معشر الأنصار في لعاعة من الدنيا تألفت بها قوماً ليسلموا ووكلتكم إلى إسلامكم. ألا ترضون يا معشر الأنصار أن يذهب الناس بالشاة والبعير، وترجعوا برسول الله إلى رحالكم، فوالذي نفس محمد بيده لولا الهجرة لكنت امرءاً من الأنصار، ولو سلك الناس شعباً وسلكت الأنصار شعباً، سلكت شعب الأنصار، اللهم ارحم الأنصار وأبناء الأنصار وأبناء أبناء الأنصار» وهنا يتأثر الأنصار أشد التأثر وتنفجر العواطف ليعلنوا أنهم رضوا برسول الله ﷺ قسماً وحظاً[1]».

وهنا يلاحظ أنّ الحالة كانت خطيرة جداً لأنها لا تتجسم مع الخلفيات العقائدية التي كانوا يؤمنون بها، وكذلك لا تنسجم مع المسبقات التجريبية التي اكتسبوها خلال حياتهم الطويلة نسبياً معه ﷺ، ورؤيتهم له كأعدل وأوعى ما يكون الإنسان الرسالي الواسع الرؤية والقلب.

---

(١) سيرة ابن هشام ـ دار إحياء التراث العربي، م ٤ ص ١٤٢.

وهذه الحالة تحتاج إلى علاجين: أحدهما؛ على المدى الطويل، وهو تركيز العقيدة، ورفع كل شوائب ضعف النفس الإنسانية، والثاني؛ على المدى الفعلي الذي ينقذ الموقف الحاد، وهو العلاج العاطفي الواعي أنه يقول لهم: «ألا ترضون يا معشر الأنصار أن يذهب الناس بالشاة والبعير وترجعوا برسول الله إلى رحالكم» كل هذا بعد أن يسبق هذا الكلام العاطفي مدح للأنصار، وموقفهم من الرسالة، ويعقبه مدح وثناء لمواقفهم الرسالية، ممّا يفجر عواطفهم، فينطلقون باكين ليعلنوا أنّهم رضوا برسول الله قسماً وحظاً.

ويطول المقام لو أردنا استعراض النماذج الأخرى فلنكتف بما قدّمناه. نسأل الله جلّ وعلا أن يوفّقنا للاقتداء برسول الله وتطبيق الإسلام الحنيف، إنّه السميع المجيب.